الوهج

قصة من الادب الروسى

كتبها لودفيك اشكنازى

ترجمة : هدى السيد

ولد لودفيك اشكنازى عام ١٩٢١ ، وعمل كمحرر وصحفى ناجح ، كما اشتهر ككاتب قد أسهم فى النهضة الادبية الحديثة فى تشيكوسلوفاكيا — وفى اثناء الحرب الماضية اشترك لودفيك فى صفوف الجيش السوفيتى ، واستدعى عمله كصحفى ان يسافر الى عدة أقطار كبولاندا والمانيا ، والولايات المتحدة وغيرها — وقد سطر صورا ادبية رائعة بادىء الامر ، ثم ظهرت موهبته القصصية فى كتابة القصة القصيره الناجحة .

— الوهج —

بدا ستانيزلاف برابك عامل الصهر ، وقد ابلاه المرض وجارت عليه السن ، وظهر شعره وقد شاب البياض مما أضاف الى عمره سنوات ، وكساه مظهر الشيخ العجوز ولو لم يكن طاعنا فى السن . كما تناهى الى علم الجميع انه مصاب فى عضلة القلب ، وقد أكد ذلك — جهاز رسام القلب الموجود فى عيادة عيادة العمال بأن ظهرت خطوطه مضطربة غير منتظمة — وذات يوم وبينما هو يمارس عمله كعادته واقفا امام مرجل الصهر ، اذ بقوته تخونه ، فيسقط فى اغماءه طويله . أسرع اليه زملاؤه فى المصنع يقدمون له يد العون. كان وجهه شاحبا كالموتى ، يسبح فى سيل من العرق البارد .

وقد ظل ستانزلاف برابك ، عامل ثلاثين عاما ، يسهر ليله امام مرجل الصهر ، يعمل فى ورديات ليلية زهاء الصهر وينام نهاره طلبا للراحة . وهكذا مرت السنون وولت ، وولت معها صحته وقوته . خفتت دقات قلبه وعجزت ساقاه عن حمله ، وظهرت العلامات الحمراء والخضراء تتراقص أمام عينيه ، فخر صريعا من فرط ضعفه واعيائه نعم لقد قضى ستانزلاف برابك السنين الطوال عاملا أمام مرجل الصهر المتأجج حتى امتص هذا الأتون الجبار نخاع عظمه ... اليس من الافضل ان يمنح أجازه حتى يسترد صحته !

وهكذا أرسل عامل الصهر العجوز الى مدينة بوديبراوى سيا ، كى يعالج بالحمامات الصحية ، ويظل تحت الاشراف الدقيق . وكان بين الفينه والفينة يقضى بعضا من الوقت فى قلعه الملك جورج — ذلك المكان الجميل .

وهناك فى حديقته الفنـاء كان يجلس أمام النافورات الجميلة شاردا ، يتأمل فى صمت الميـاه المنبثقة من عيونهـا تتراقص فى تيـه ودلال . ثم يمسـك بعصاه ويخط بهـا على الرمال رسـوما غريبة، تمثل أشكالامتباينة من الأسماك والازهار . وفى بعض الاحيان كانيتنزه فى قارب شراعى فى نهر الالب الى بلدة « كولين » . كان يرى مستندا بذراعه الى حافة القارب ، وقد ارتسمت على صفحة وجهه امارات الاسى ، يشخص بنظر شارد الى أمواج البحر الحانيه وهى تتلاحق فى رفق وجمال ، وبينما كانت تنسـاب مياه النهر على هذه الصوره ، كان (سـتانزلاف برابك) يسترجع فى مخيلته طائفة من الذكريات ... صورا أخرى لانها مشابهة يعرفها حق المعرفة ، ولـكنها من نوع آخـر فمياهها الحديد المنصهر . كان يراها بعين خياله وهى تتدفق بقوة جارفة من جوف المرجل الجبـار . ثم يلمح ضـوءا خافتا متوهجا ينبعث من كل مكان ... ياله من مشهد تهفو اليه نفسه وتحن لرؤياه عينـه . أخذ يفـكر فى الانسان وقوته وكيف انه قادر على السيطرة على مثـل هذا النهر ، الذى يتنزهه على صفحته ، والتحكم فى مصيره تماما كما يفعل هو (سنانيزلاف برابك) عامل الصهر عنـدما يقف امام مرجـله فى المصنع . أليس هو المسيطر حينذاك على المعدن الذى فى جـوف المرجل ، والمتحكم فى مصيره ؟

شده الحنين الى وطنه (أوستريفا) فعـاد اليه فجـاه غير مبـال بصحته أو علاجه ، وقد اخذ منه المرض مأخذه فبدا اكثر ضعفا واشد هزالا . ومع ذلك آثر أن يذهب الى بيتـه من المحطة سـيرا على قـدمه ، ليطـأ أرض بلاده العـزيزه ويدوس ترابهـا أطول مدة ممكنة . بدا وجهه مشرقا تنضح عيناه بالبشر والسعادة ولا عجب فى ذلك فهو يتنفس هواء وطنه بعيـده المشـحون بدخان المصـانع المتـكاثف . حقـا .. ما جدوى بلد جميل مثل « برودبيرى » بالنسـبة له ، انها ليست الا جنـات وارفه بحدائقها المنسقة ، يأوى اليها المرضى وكبـار السن طلبـا للراحـة والاستجمام .

اما اوسـتريفا وطنه الحبيب فهى مدينة صـاخبة تنضح بالنشاط وتملأها الحياه . وأخيرا وصل الى بيته . وقد آثار ظهوره المفاجىء دهشة بالغة . فما ان رأته زوجه حتى تشابكت يداها فى ذعروصاحت مستفسره :

ـ من أين جئت ؟

ثم أضافت بخبث بين :

ـ ليس عندى من الطعام سوى قدر من البطاطس المهروس :

وفى اليوم التـالى فحصـه طبيب العمال ، وهز راسه بشك وعدم ارتياح كما أشارت خطوط رسام القلب الى ان الداء لا يزال كامنا فى جسـده . ونوقش (ستانيزلاف برابك) بعد ذلك فى أمر فراره المفاجىء من «بوديبريدى» والداعى اليه . وظهر من اجابته ان عامل الملل الذى ادركه ، واصاب نفسه مدة اقامته هنـاك كان الدافع الذى أوحى اليـه بالفرار منها . ولـكن فى حقيقة الامر ، كان هناك سبب آخر اكثر اهمية وابلغ اثرا فى نفسـه ، فقد تسلم ذات يوم وهوفى استجمامه (بيوديبريدى)

رسالة من ابنه (توماس) هذا فحواها :

والدى العزيز ٠

اننا نذكرك دائما بقدر ما نفتقدك . ارجو ان تكون متبعا لتعليمات الطبيب ووصاياه بدقة متناهية . ما اشوقنا اليك يا ابتاه . اخبرك اننى قررت نهائيا ان اكون مثلك ، عاملا لصهر المعادن . لا تحاول أن تقنعنى بتغيير رأيى أو تثنينى عن عزمى فانى على يقين بما أنا قادم عليه .

اخبرك ان (ماتشى) كرة القدم الذى جرى يوم الاحد ، كان ضعيفا للغاية ٠ وأنه لمن حسن الحظ انك لم تكن حاضرا حينذاك ، فلا شك ان مشاهدتك للاعبين كان ليثير اعصابك حتما ، فقد اصاب «انتشى» هدفا ولكن فى مرمى فريقه٠٠ ألست تراه أحمقا متهورا ؟

مرة اخرى اننا نتشوق الى اخبارك، كما نفتقد وجودك بيننا . واخيرا نرجو الا تكثر من شراب البيرة .

ولدك المخلص

توماس

وفى الواقع ان هذه الرسالة كان لها وقع كبير فى نفس « سناتيرلاف برابك » بل كانت الدافع الاساسى الذى حدا به الى الفرار من (بوديبرى) والعودة الى وطنه ــ ذلك انه رغب فى أن يناقش ولده فى امر جلل .

ولاذكر الآن شيئا عن العرف القديم الذى كان سائدا بين الفقراء ٠ والذى كان يحتم على الابناء ممارسة حرفة آبائهم بشكل آلى ٠ فمثلا اذا كان الوالد اسكافيا فلا مناص للابن من أن يجد مكانه بين أصحاب هذه الحرفه . وبمعنى آخر كان لكل مكانه الخاص به والمرسوم سلفا له ٠ ولم يكن له الحق فى أن يختار سواه من الاعمال ٠ وكان من السائد ايضا انتقال ادوات الحرفه من الاب لابنه بطريقة تلقائيه ، كمثقب الاسكافى وابرة حائك الملابس، ومصباح عامل المنجم ، تماما كما ينتقل العرش الملكى من الملك الى ولى عهده نعم لقد جاء وقت كان عامل المنجم يأخذ بيد ابنه ويقوده الى أعماق الارض حيث منجم ، دون مبالات لرغبات ولده والتعرف على حقيقة ميوله نحو العمل الذى ترضاه نفسه . وربما كان هذا الابن موسيقيا بفطرته ٥ يسهر الليالى يستمع الى فرقة موسيقية بالمذياع ، فاذا ما غلبه النوم ، رأى فى نومه صورة الكمان والناى . يذهب الى الكنبه ليشنف سمعه بصوت الادغن الرنان ويقضى الساعات الطويلة امام نافذة المحل التجارى ، يمتع ناظريه برؤية آلة الاكرديون وهى تتألق ببريق لامع جذاب أن مثل هذا الفتى ولا شك موسيقيا قلبا وقالبا ، ومع كل ذلك ترى والده يقوده الى سجن المنجم بدلا من أن يعهد به الى أستاذ كبير فى معهد موسيقى ليصنع منه عازفا موسيقيا فذا . وهكذا كان العديد من العمال يبذلون النفس والنفيس من أجل لقمة العيش. ألم يضحوا برغباتهم ويكبتوا مشاعرهم تحقيقا لعرف عتيق موروث . وكم من موسيقى يضارع بيتهوفن براعة ضلت نفسه وشردت روحه بل ظل حبيس اراء قومه الرجعيه وتقاليدهم البالية التى تضحى بالقيم فلا تحسب لها حسابا . وفى نفس الوقت كانت فتيات

الطبقة الثرية يشغلن أوقات الفراغ فى بيوتهن بالغزف على البيانو عزفا مشوها مضطربا لمجرد التسليه ـ وهكذا كانت الموهبة وليدة المال وبنت الثراء فان كنت مثلا ثريا فلا شك انك موهوب .

أما الآن فالأمر جد مختلف ـ وليس بنا حاجة لمناقشة الموضوع تفصيلا . ففن العزف على البيانو مثلا لم يعد مسألة ثراء ، أو درجة جامعية يشتريها الطالب ببعض من مال والده الوفير أو جاهه العريض . نعم ليس الآن مايمنع ابن الاسكافى من أن يصبح أستاذا فى اللغات الشرقية اذا ماظهر ميله اليها ونبوغه فيها . أو أن تكون ابنة عامل المنجم شادية طروب لموهبة كامنة فى نفسها . أو أن يصبح ولد عامل الصهر طبيبا بارعا ... ومن هنا يمكننا أن نصل الى معرفة بعضن من رغبات « ستانيزلاف رابك » الخفية ، والتى عاش عمره يمنى النفس بتحقيقها . ومن المعروف أن كل فرد منا يحتفظ فى أعماقه بآمال وأحلام كبار، يترقب أن يجىء اليوم الذى تقر فيه عينه بتحقيقها . كان عامل الصهر العجوز يقدس حلما عزيزا عليه ويطرب كلما اجتر ذكراه . لقد كان يرى ابنه دائما ـ بعين خياله ـ وقد ارتدى معطفه الابيض وخفه الاملس يطوف من سرير الى آخر فى احد عنابر المستشفى ... وفى يوم العطلة يعود الطبيب توماس الى بيته ، فتهرع اليه والدته تحمل عنه حقيبته الطبية ليتوجه الى الحمام فيغسل يديه .

هذه كانت أحلام «ستانيزلاف الشيخ» وأمانيه الكبار . لقد رغب أن يرى ولده توماس طبيبا فى يوم ما . ولا يفهم من ذلك أنه كان كارها لحرفته ضجرا بها ، لا بل كان شغوفا بها وفيا لها ، يود لو إستطاع أن يفنى مابقى من عمره فيها . لقد ترك على كل قضيب من الحديد تناولته يداه ، جزءا من قلبه المتفانى رمزا لولاء ذلك الثعلب المحب الذى يكمن الآن خائرا بين ضلوعه . ولكن مع كل ذلك تاقت نفسه أن يرى ابنه وقد أصبح طبيبا مرموقا . ومن أجل ذلك فر من « بوديبريدى » وأسرع عائدا الى وطنه ، ليتدبر الامر وينقذ الموقف .

كان « توماس » يافعا يزدهر فى مطلع الشباب يناهز الخامسة عشرة ربيعا .

ولما أفضى اليه والده برغبته الصارخة بالنسبة لمستقبله ، أجابه على الفور :

ـ انك لا تزال تتشبث يا أبت بالافكار الرجعية البالية .

لقد كانت هذه هى الطريقة الجديدة التى يخاطب بها الاولاد أباءهم فى هذه الايام ، ولذا استولت الحيرة على الاب المسكين ، ولم ينبس ببنت شفة ، وكل مافعله أنه نهض من مكانه يذرع الغرفة جيئة وذهابا بخطوات واسعة .

وأخذ يستعرض صورة ابنه فى مراحل نموه المختلفة ويرى كيف اختلفت معها وجهة نظره بالنسبة للعمل الذى يود أن يمارسه فى مستقبل حياته . فمثلا عندما كان فى الثالثة من عمره رغب فى أن يكون سائق سيارة ، ولما بلغ الخامسة أقسم أن يكون بحارا ، وأخذ يشكل قوارب صغيرة من الورق ، ويلقى بها فى احدى جداول نهر «اوستريفا» ، ويضع على رأسه قبعة نقشت عليها بالخط العريض (ذئب البحر) . وفى سن

العاشرة قرر أن يكون عالما مخترعا · وما أن بلغ الثالثة عشرة من عمره حتى عقد العزم على أن يكون طبيبا · ومنذ أيام ثلاثة فقط احتفلت أفراد أسرته بعيده ميلاده الخامس عشر وتقدمت اليه بهذه المناسبة دراجة ، وبعض المنظومات الشعرية · وفى هذا اليوم كان والده يرمقه ، طول الوقت ، بعين الفخر والاعجاب ، ثم يسرح البصر ويتأمل فى عمق ، يا لها من حياة خلاقة تصنع المعجزات دائما · فمنذ خمسة عشر عاما سمع صيحة ابنه الاولى التى بها استقبل الحياة وقد بدا بوجهه الاحمر وأنفه الصغير ، ورأسه الملساء · ثم رآه بعد ذلك طفلا يرقد سعيدا فى مهده ، وسمع ضحكاته المنغمة التى يشع منها البهجة والمرح · ثم مرت السنون ··· ونما معها توماس حتى صار طبيبا يافعا فى شرخ الشباب ··· كما يبدو الآن ··· كذلك ولى الزمن الذى كان يعترض فيه الآباء طريق أبنائهم ، ويرسمون لهم مستقبلهم كيفما شاءت تقاليدهم البالية· ·· نعم ان جميع الابواب مفتوحة أمامك يا توماس ، وعليك أن تقرر وتختار أحدها ·· وأخيرا اختار توماس والتحق وهو فى سن مبكرة باحدى المدارس الصناعية ، التى تؤهله مهنيا لان يكون حدادا · وفى هذا الوقت أحيل والده الى المعاش ، وكان يقضى فراغ وقته فى تنسيق حديقته الصغيرة، ومطالعة بعض الجرائد والمجلات · ومرة أخرى أرسل الى بلدة « بوديبريدى » للاستجمام والراحة ، ومرة أخرى فر منها مهرولا قلقا كريشة فى مهب الريح ، ذلك أن مدينة « أوستريفا » ـ وطنه الحبيب ـ القاتمة بدخان مصانعها والتى تضج دائما بالضوضاء والحركة ـ كانت تشده اليها بقوة كبيرة ، كما تشد الخلية النحلة الهائجة · ولا شك ان هذا الحنين الدفين الى « أوستريفا » كان السبب الاقوى الذى جعله عبدا لعادة غريبة ، اليك تفاصيلها بايجاز :

··· ففى الساعة الثانية من صباح كل يوم ، اعتاد « ستانيزلاف برابك » عامل الصهر العجوز أن يهجر فراشه مستيقظا فى الظلماء · لقد كان هذا الوقت على جانب كبير من الاهمية فى حياته · ولا غرابة فى ذلك فقد اعتاد فيه أن يفتح صنبور مرجل الصهر فى المصنع ليسمح للحديد المنصهر أن يتدفق من فوهته كالسيل الجارف ·

حقا لقد ولت هذه الايام الى غير رجعة ، ولكنه لا يزال أسير حبه لها ، يتملكه الحنين كلما عاودته ذكراها · فاذا مادقت الساعة معلنة الثانية صباحا نهض « برابك » من فراشه ، وأشعل عود ثقاب ، يبحث على ضوئه موضع الخف حتى يجده · وبهدوء وحذر يتلمس طريقه الى النافذة ··· تريث أيها العجوز واحترس ، لا تتخبط فى الاثاث هكذا ·· أتركل هذا المقعد مرة أخرى ؟!

ثم يفتح النافذة ويملأ صدره بشهيق طويل من هواء الليل المنعش ، ويشعل عودا آخر من الثقاب ، فينظر الى ساعة الحائط ليتأكد من حقيقة الوقت ·· ان عقارب الساعة تشير الى الثانية صباحا ·· انها اللحظة المنشودة فى حياته · وفى نفس الوقت تتحرك زوجه فى فراشها متظاهرة بالنوم ·· هذا كل ماتستطيع أن تفعله بعد أن عاهدته أن تتركه وشأنه ولا تتدخل فى أموره الخاصة أبدا · وهكذا يظل « ستانيزلاف » واقفا أمام

النافذة ، وقد فاض من تحتها نهر « أوسترافيس » تتهامس أمواجه فى رقة وعذوبة ، بينما تهب نسمات الليل العليلة فتعطر الجو بأنفاسها المعطرة وأريجها الفياح • هذا اذا كان الوقت ربيعا ، اما ان كان صيفا فانه يرى ذرات الحديد والفحم ، وقد تناثرت هنا وهناك واختلطت بحبوب اللقاح المنتشرة بين الاشجار والازهار تتراقص أمام النافذة مرحة طروب • فاذا ماجاء وقت الخريف يرى « ستانيزلاف » واقفا يرقب النجوم المنثورة على صفحة الماء ، تتالق ببريق خاطف لايلبث أن يختفى فى عالم مجهول ••• ثم يأتى زمن الشتاء ، واذا بكل شىء هادىء ساكن ـ تتساقط حبات الثلج فتلبس الطبيعة ثوبا قشيبا ناصع البياض • كل ذلك يحدث وهو قابع فى مكانه المقدس أمام النافذة يسرح النظر فى تلك المشاهد الخلابة وينتظر اللحظة الموعودة •••

••• ان الطقس بارد أيها العجوز ، وعليك أن تدثر بدثار صوفى تحتمى به من البرد •

هكذا تردد زوجه القلقة ، ولكنه لا يأبه لقولها •• ويظل واقفا فى مكانه •

وتستمر ساعة الحائط فى دقاتها المنتظمة تطوى الثوانى فالدقائق وتطوى معها الزمن • وبغتة يسطع فى السماء وهج متالق ، يبدو أحيانا وقد امتزج به وميض أزرق لامع، وأحيانا أخرى يسطع هذا الوهج فى لون برتقالى متلألىء يشوبه بياض صدفى ، أشبه مايكون بلون السحب وقت الغروب ••• انها اللحظة المنتظرة التى فيها يتدفق الحديد المنصهر من فوهة المرجل معلنا ميلاد حديد جديد • ويستمر « ستانيزلاف برابك » شاخصا الى ضوء الوهج حتى يخفت ويذوب فى الظلام • وعندئذ تتحرك زوجه فى الفراش من جديد وتفتح عينها فتسأله بخبث :

ـ هل رأيته ؟

ويجيب ستانيزلاف برابك فى اقتضاب:

ـ نعم •

وبعد لحظات من السكون الشامل تعود الزوجة فتقول فى ضجر :

ـ أتدخن من جديد ؟

ويجيئها الرد فى صورة شرارة لامعة تنبعث من غليون زوجها ، كعين صغيرة حمراء تختلس النظر فى الظلام • ثم يتثاءب « ستانيزلاف » بتكاسل ويقول بنبرات ناعسة :

ـ نامى يا امرأة !

ـ انى نائمة يا عزيزى •

بهذه العبارة القصيرة تهمس الزوجة فى طاعة وهدوء ، ولو أنها اعتادت ألا تنام فى مثل ذلك الوقت من الليل ـ فقد كانت امرأة عجوز ، تؤثر التفكير فيما يشغل بالها من أمور الحياة التى تعنيها ، كأزرار قميص زوجها لا سيما هذا الذى يقبع خلف الياقة ••• فقد أتى القدم على الخيوط التى تثبته بالياقة فتآكل معظمها وأوشك على السقوط • نعم لم يبق هناك سوى خيط رفيع واهن يتشبث به ••

أما « ستانيزلاف برابك » فكان يأوى الى فراشه يتنفس فى راحة ورضا بينما تحملق زوجه فى الظلماء وقد ارتسمت على صفحة وجهها ابتسامة معبرة فيها معنى التسامح ، ثم تهجس

فى نفسها : انك تستيقظ دائما فى الثانية صباحا ، أليس كذلك ؟ افعل ما شئت فانى لا أتدخل فى شئونك الخاصة كسابق عهدى لك • وعلى كل فلا شك أن الأمر يكون أشد سوءا ، لو كنت تقضى هذا الوقت خارج البيت ، فلا تعود الا فى الثانية صباحا •• انك تترقب ظهور الوهج •• هكذا تزعم •• وعلى أى حال فانى لا أغار من تلك الشابة الصغيرة ـ بل أنصحك ألا تكف عن التطلع اليها حتى ترتوى عيناك ، وتشبع نهمك ايها الأحمق •••

ورغم تلك الهواجس ، كانت «مارى برابك » ـ كزوجة مطيعة ـ تترك زوجها وشأنه يستمتع بخلوته البريئة فى شغف وامتنان ـ بعد أن كانت فى مبدأ الأمر لا تكف عن التشاجر والتشاحن معه ، فمن ذا الذى سمع عن أسرة محافظة ، يستيقظ أفرادها ، فى مثل هذا الوقت من الليل ••• لماذا لا تأوى الى فراشك فتنام أيها المخلوق المزعج•• اقفل هذه النافذة يا (سناتيزلاف) •• اقفلها من فضلك •• فالطقس قارس البرد ••

ولكن مع الوقت اعتادت منه هذا الأمر •• فكانت تستيقظ مع رجلها العجوز ، تتطلع اليه خلال جفونها المتكاسلة ، وهو يحج الى النافذة بوله وخشوع ـ وهكذا وهكذا تظل يقظة حتى يعود الى فراشه ، ويغيب عن نفسه فى نوم هادىء عميق •

وعلى أى حال لقد انتهت مغامراته الليلية أخيرا ولن يستيقظ فى الظلام بعد الآن، ليهرع الى النافذة•• كالعذراء العاشقة يشدها الشوق فتهب فى جوف الليل تترقب ظهور الحبيب •

وذات يوم عاد برابك الشاب من معهده الصناعى ، الذى التحق به أخيرا ، بعد أن تبخر تماما ذلك الحلم الذى داعب خياله المتغلب من وقت قريب • هش والده للقائه وأسرع اليه يعانقه كزميل وليس كوالد فحسب ، ثم أخذ ينصت اليه باهتمام وهو يتحدث فى موضوعات يجهلها تماما ولا يعى منها شيئا ، ومن حين لآخر يعلق عليها بضحكات تشوبها الحيرة والارتباك • مثال ذلك قول الفتى :

ـ لقد عالجنا اليوم بالدراسة والبحث مسائل وعمليات (أشعة اكس) التى تحقق خلو مادة الصلب من العناصر الفلزية •• لا شك يا أبى أنك لا تعرف شيئا عن ذلك •• انها مسألة لا تتعلق بالحديد، بعيدة تماما عن مرجل الصهر• أو أن يقول :

ـ اذا وصل التبريد الى درجة غير كافية ، فلا يمكن الحصول على النتائج المطلوبة •• أرأيت يا والدى النظريات الحديثة ؟ أشعة اكس وخلو الصلب من العناصر الفلزية •• ماذا تعرف أيها الشيخ عن هذا كله ؟

ثم يتملكه الغرور والزهو فيقول :

ـ ألا فاسرع الى ابنك (توماس برابك) عامل الصهر الشاب ، وانحنى أمامه تقديرا واسأله بلطف وأدب ان كان يسمح لك بالتحدث معه •

لقد أطاح الشيطان بعقل الفتى !! هكذا فكر الأب مشدوها •• يا له من تطور عجيب ، فقديما عندما كان طالبا يتعلم الحرفة كان كل ما يعنيه من أمر (التبريد) ، هو التأكد من أن شراب البيرة الذى كان يحتسيه سيده ـ ربه

الحرفة ـ مثلجا دائما ، أى فى درجة التبريد المناسبة ، أما الآن ·· فيالعجب ما سمع ··· اذا وصل التبريد الى درجة غير كافية ، فلا يمكن الحصول ·· ثم أخذ يهجس فى نفسه :

ـ انتظر أيها المغرور حتى تتلاقيا معا ·· أنت ومرجل الصهر ، وعندئذ سوف نرى ماذا أنت فاعل يا سيد (اشعة اكس) ·

ثم جاء اليوم الذى أقبل فيه (توماس برابك) الشاب بآكتافه النحيفة وقال:

ـ ان اليوم موعد أول تجربة نقوم بها لصهر المعادن يا أبتاه ··

ـ ولكن فى أى مراجل ؟

هكذا نطق الأب فى حيرة وارتباك · وأجاب توماس على الفور :

ـ فى مراجلنا الحديثة ·· ألا تذكر مرجلك الذى كنت تستعمله فيما مضى ؟

وبهدوء ظاهر قال (سنانيزلاف برابك) :

ـ مرجلى أنا ؟

وبدا عليه الضجر فحول دفة الحديث·

وجلس أفراد الأسرة يتناولون طعام العشاء ـ كان الوالد شارد الفكر ينظر الى ولده فى وجوم ·· وخرج من صمته وسأل مستفسرا :

ـ ومن الذى سيتولى عملية صب المعدن من المرجل بعد أن يتم صهره يا ولدى ؟

أجاب توماس على الفور :

ـ أنا يا أبت ، وهذه الليلة بالذات·

وما أن سمع الوالد هذه العبارة حتى شرد مرة أخرى ··· ان الوقت المناسب للقيام بهذه العملية الكبيرة لم يحن بعد، انها لحظة بالغة الاهمية ، ليس فيها مجال للتحفز أو الغرور ، وحتى ان كان هذا الغرور نابعا عن كفاءة ظاهرة ، فقد يخطىء المرء وتأتى الرياح بما لا يشتهى السفن ··· رباه من كان المتحدث ؟· وهل يكفى هذا الهراء ليقوم دليلا على الكفاءة والمقدرة ؟ وعلى كل لننظر ·· وان غدا لناظره قريب ، أيها الشاب الرشيق ··· نعم غدا سوف نرى ماذا أنت فاعل ··· آماه ـ هكذا كان ينادى زوجه أحيانا ـ لاتنسى أن تضعى معطفى الصوفى فى حقيبتى ، فالطقس عادة يكون قارس البرد فى مثل هذا الوقت من الصباح الباكر ·· ولا شك أن جسم الغلام الغض سوف يكون ملتهبا من شدة حرارة المرجل الذى يقف أمامه لأول مرة ، وقد تعصف به الريح الباردة ـ وهو يغادر المصنع ـ دون رحمة أو شفقة فلا يدرى الصغير ماذا يفعل وأين يلوذ !!

ثم أخذ يهجس فى نفسه من جديد ، ترى هل سيعرف كيف يتحقق من درجة حرارة الموقد ؟ وعما اذا كانت هى الدرجة المناسبة ·· أم لا ؟ وعلى كل لن أذكره بذلك ولن أزوده بأية معلومات ضرورية·· حتى يخوض المعركة بنفسه فيعرف كل شىء عن هوايته المشبوبة وهو يقف وجها لوجه أمام مرجله العزيز ···انه فى حاجة الى حلة جديدة مناسبة بعد أن صغرت عنه ملابسه ، فهو دائم النمو كالشجرة اليانعة ·· واذا ما غادر ولده البيت ، صاح ستاتيزلاف يناديه:

ـ لاتنسى ياولدى أن تتأكد من حرارة الموقد قبل أن تبدأ مهمتك ·

ـ حسنا يا أبى ٠

هكذا أجاب توماس باقتضاب ليسكته، ثم اختفى فى الظلام ٠

أخذ الزوجان يتحدثان طويلا فى هذا الشأن ، واتفق رأيهما على أن ظهور عمال الصهر المهرة أمر نادر الوجود على عكس الاطباء مثلا فان عددا وفيرا منهم يظهر فى كل زمن٠ ثم مال سناتيزلاف بحديثه الى موضوع (أشعة اكس) فقال أنه ليس بالأمر الهين ٠ ثم سأل زوجه قائلا :

ـ هل تعرفين يا أماه ما المقصود (بأشعة اكس) وعلاقتها فى تحقيق خلو الصلب من العناصر الفلزية ٠٠؟ بلا شك انك تجهلين العلم بذلك ٠٠ ولك العذر كله ، فمن أنت حتى تعرفين هذه الأشياء ؟

ثم ذهب كل منهما الى فراشه ، وفى تمام الساعة الثانية صباحا ، استيقظ (سناتيزلاف) من جديد وأشعل عود ثقاب ليرى على ضوئه مكان خفه ، ثم اتجه الى النافذة ففتحها على مصراعيها ووقف شاخصا الى السماء وقد لفها الظلام الحالك ٠ كان القمر يتوسط كبدها يسبح ، فى نوره الفضى خلف السحب السيارة المنتشرة هنا وهناك يداعبها بلمسات أشعته الحانية ، بينما تسرب بعض منها خلال النافذة فأضاء صفحة ساعة الحائط القابعة على جدار الحجرة ـ كانت الثوانى تدق دقاتها المميزة الوئيدة ، ثم يتحرك المؤشر الكبير قليلا من مكانه معلنا زوال دقيقة من عمر الزمن وميلاد ثانية جديدة ٠٠ وهكذا مرت دقيقة ثانية ، فخمس ، فعشر و (ستاتيزلاف برابك) لا يزال فى وقفته الخالدة يشخص الى السماء الداكنة ، بعينين تشع منهما الحيرة وقد تدثرت عروقه من فرط القلق والانتظار٠ ولكنه لم يسمع سوى صفير القطارات يدوى صداها فى الفضاء الساكن ، ولم ير الا أنوارا باهتة تنبعث من أماكن بعيدة نائية ٠٠٠ مرت ساعة على هذه الحال ٠٠ و (ستانيزلاف) فى وقفته تلك ينتظر بقلق بالغ أن يظهر الوهج المضىء كسابق عهده٠ ولكن دون جدوى ٠٠٠ ثم بادرته زوجه مارى مستفسرة :

ـ ما الخبر ؟

ولكن (ستانيزلاف) الشيخ ظل صامتا لم يحر جوابا ، اذ تملكه القلق واتجه بكل حواسه الى السماء فى صمت وقنوط ، ثم همس فى نفسه بخوف :

ـ رباه ٠٠ ماذا عساه قد حدث ٠٠

وبعد مدة طالت نفذ معها صبره ،

أغلق النافذة وعاد الى زوجه٠ كان يسير بخطى وئيدة مترددة ، كما يسير الاطفال المذنبون فى المدرسة حيث مكتب الناظرة للاعتراف بخطئهم ـ وهم مضطرون ٠٠

عادت مارى تسأل :

ـ هل رأيته ؟

ـ كلا ٠٠

هكذا أجابها باقتضاب ونظره لايزال متعلقا بالسماء ٠ ولأول مرة تغير النظام الذى كان يسود دائما فى مثل تلك الليلة ، فقد هبت مارى من فراشها لتكون بجوار زوجها أمام النافذة٠ وقف الزوجان بأعين زائغة وأيد متشابكة يشخصان نحو الجنوب الى صوب المكان الذى يمكن أن يرى منه ضوء الوهج

المنبعث من المرجل لحظة صب المعدن المنصهر ... ظلت مارى على هذه الصورة ، وقد بدا وجهها مضيئا تنضح ملامحه بالبشر والخلق الكريم ويلمع فى عينها بريق المحبة والوفاء . كانت ترتدى قميص نومها الابيض وتدثر فوقه بدثار صوفى نسجت خيوطه يداها النحيلتان وفى قدميها خف أتى عليه القدم فمزق أوصاله تمزيقا .

ـ ياله من مشهد رائع حقا هذا الذى بدا عليه الزوجان لحظتئذ ، والله انه لجدير بأن تتزين من أجل السموات فتلبس أجمل حللها وأكثرها نورا وضياء ، ليت السماء تحقق هذا الرجاء فيهدأ بال الزوجين ويستقر حالهما . ولكن وأسفاه .. لقد أبت السماء الا أن تظل فى لباسها الداكن تزينه النجوم ببريقها المتلألىء .

همس (ستانيزلاف) فى نفسه من جديد :

ـ رباه .. ماذا حدث .. انى اتمزق قلقا .. ترى ماذا جرى ؟

ثم خاطب زوجه :

ـ اعطينى حاجياتى يا أماه .. انى ذاهب الى هناك ...

نصاحت الزوجة فى ذعر بين :

ـ ولكن الى أين ؟.. ان الوقت جاوز منتصف الليل ..

ولكنه ما جدوى النقاش مع مثل هذا الرجل العجوز العنيد .. لقد ارتدى معطفه ووضع القبعة على رأسه باحكام وأمسك عصاه واندفع الى الخارج مهرولا .. انه ذاهب حيث ولده توماس لينقذه من هلاك محقق .. وما أن وصل الى المصنع حتى لمحه الحارس فأخذ يرمقه من رأسه الى قدمه مذهولا وكأنه رأى شبحا فى الظلام أو مسه شيطان من الجن ، اذ لم يحدث أبدا أن رأى عاملا أحيل الى المعاش يعود الى مقر عمله فى مثل هذا الوقت . فنور الفجر أوشك أن ينبثق .. تجهم وجه (جافندا) الحارس وبدا عابسا فظا .. ولا غرابة فى ذلك فانه ينفذ التعليمات الرسمية ولا يحيد عنها أبدا ، ولو كان القادم صديقه الحميم .

وبادره (جافندا) مستفسرا :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟ أ الى العمل ؟ انى لن أدعك تدخل ... ما بالك تنظر الى هكذا يا (ستانيزلاف) ـ انى أنفذ التعليمات الرسمية .. انه عملى كما تعلم .. ولا بد من المحافظة عليه ..

أجاب (ستانيزلاف) على الفور :

ـ وانه عملى أنا الآخر... انى ذاهب لأرى ابنى . ثم أضاف بحنق :

ـ ألا تعرف من أنا يا جافندا ؟ أم ترى نسيت ؟

ـ طبعا انى أعرف جيدا .

هكذا أجاب الحارس بتردد ملحوظ .

ـ اذن من أنا .. أفصح .. أجب..

ـ ستانيزلاف ـ نعم انك ستانيزلاف..

وعاد ستانيزلاف يردد صائحا وقد تملكه الهياج :

ـ من أنا ..؟

ـ من تكون ؟ أحمق عجوز . هكذا أجاب جافندا بسرور الظافر .

ـ أو تسمح لى بالدخول ؟

ـ كلا لن أدعك تدخل ٠

ـ ماذا تقول ٠٠ لن تدعنى ٠

ـ انى لا أستطيع بحق السماء يا (ستانيزلاف) ٠

ـ (جافندا)٠٠٠ بهذه الكلمة همس (ستانيزلاك) مخاطبا الحارس ، بينما نظر اليه الاخير بدهشة وحيرة ٠ وأخيرا عاد اليه هدوءه وقال بلطف :

ـ اذن فادخل ٠٠ ولا تمكث طويلا٠

ثم أخذ شهيقا عميقا كمن أفاق من اغمائة طويلة ٠ وفى الواقع أن أتى حارس آخر فى مكانه ، ما كان ليدع ستانيزلاف يدخل المصنع حيث يجرى العمل الذى وهبه حياته حبا ووفاء ٠

وما أن دلف ستانيزلاف المصنع حتى اعتراه الذهول واستولت عليه الدهشة البالغة انه ألفى نفسه شاخصا الى ذلك المشهدالخالد الذى نقشتمعالمه فى نفسه طيلة ثلاثين عاما ٠٠ ظل فيها واقفا أمام المرجل المتفجر بمعدنه المنصهر ٠٠

لقد كان كل شىء على حاله ، بخار المراجل يتصاعد فى حركات لولبية كالافعى مصدرا فحيما مدويا ، وأصوات الآلاتالجبارة تصلصل فتهز أرجاءالمصنع هزا ٠ ووهج المعدن المصهور يتأجج بوميض يتلألا حينا ويخبو حينا آخر٠٠ لقد كان كل شىء على حاله ٠٠ ثم رأى (توماس) ولده يقف أمام مرجله ٠ فى الوضع الصحيح ٠٠ عندئذ شد نفسا عميقا من بين ضلوعه الواجفة ، تماما كما يفعل متسلق الجبل اذا ما وصل الى القمة ٠٠ حقا لقد كان كل شىء فىمكانه المألوف ولم يكن هناك من منظر غريب سوى منظره هو ، وهو يسير بخطى وئيدة متوكئا على عصاه وسط قرقعة الآلات وقد كساه الكبر مظهر المهابة والوقار ٠ رآه ابنه توماس ورفقاؤه فاستولت عليهم دهشة مذهولة وأخذوا يحدجونه ، بنظرات شاردة مستطلعة وكانهم يتوقعون بين لحظة وأخرى أن يذوب الرجل العجوز ويتحول الى نجار٠ ولكن (ستانيزلاف برابك) ألقى على المكان نظرة مجربة شاملة وقال مخاطبا ابنه :

ـ حسنا يا سيد اكس راى ، ترى أيتصبب العرق من جسمك كما ينبغى ؟

أجاب توماس على الفور :

ـ نعم يا أبت ، ولكن ما الذى أتى بك هنا الآن ؟ وماذا تفعل ؟

وما لبث أن تناول رشفة عميقة من شراب البيرة ، تماما كما يفعل عمال الصهر المتخصصون ، ثم ناول أباه القدح ٠

ـ انظراليه الآن٠٠ انه يبدوكالعامل المحترف المحنك ٠ هكذا كان يفكرالوالد وهو ينظر اليه ٠ ثم عاد يسأله فى نبرة ساخرة :

ـ ومتى يحين الوقت الذى تصبون فيه المعدن المنصهر ؟ لقد أتيت خصيصا أشاهده وهو يتدفق من فوهات مراجلكم ٠٠

أجاب الصبى بحماس وثقة :

ـ لقد انتهينا فعلا من عملية الصب ـ كدفعة أولى ـ يا والدى من وقت مضى ، وها نحن الآن نتأهب لصب الدفعة الثانية ٠

وما أن سمع والده هذا الكلام حتى تراجع مأخوذا وقال :

ـ ماذا تقصد بالدفعة الثانية ؟ ومتى كانت الدفعة الأولى اذن ؟

ـ فى منتصف الليل تماما ، هكذا أجاب توماس وقد لمعت عيناه ببريق النصر ثم أردف :

ـ لقد أفرطت فى النوم يا أبى . وعلى كل لاتخش شيئا فان خلفك يقوم بعمله على الوجه الأكمل ويحافظ على الوقت بكل دقة . ثم تابع حديثه يسأله :

ـ أتعرف يا والدى ما المقصودبعملية الصهر السريع ؟

ـ ماذا أسمع؟ أهكذا تخاطبنى؟ قالها (ستانيزلاف) الشيخ بلهجة ، تنم عن التبرم والضيق الشديد . ولم ينبس بعدها بحرف بل ظل صامتا ، كالصخر الأصم ، بينما استطرد ابنه فى حديثه مفسرا :

ـ ان عملية الصهر السريع لا تأخذ من الزمن أكثر من ساعة ونصف ياأبتاه، ذلك أننا نقوم بها علميا أى وفق نظريات علمية بحتة ـ ولذلك يطلق علينا (عمال الصهر السريع) اننا مدرسة مختلفة تماما كما ترى ..

ظل الوالد صامتا لبرهةوقد تزاحمت الافكار فى خاطره وأخذ يتأمل فى عمق ..ياله من عالم عجيب ذلك الذى نعيش فيه .. ويالها من معجزات تلك التى يصنعها هؤلاء .. كم زمن مضى منذ أن سمعت صيحة ابنى الأولى يعلن بها خروجه الى هذا العالم الصاخب ... أماه لقد أضعنا وقتنا هباء ونحن وقوف نترقب ظهور الوهج .. حقا لقد غلبنا النوم ، كما قال توماس ابننا ، فاسترسلنا فى سباته ، وبذلك فقدنا رؤية الوهج ـ لقد وقفنا نشخص بأبصارنا خلال النافذة .. ولم ندر حينذاك أنه قد لاح وخبا من وقت مضى.

وبعد لحظة أفاق (ستانيزلاف) من تأملاته وتابع الحديث :

ـ لقد أحضرت معى بعض الخبز والزبد من أجلك ..

ـ أنصفت يا أبت فانى أتضور جوعا .

ومنذ ذلك الحين و (ستانيزلاف) لا يستيقظ فى جوف الليل كسابق عادته، ليتطلع من خلال النافذة الى ضوء الوهج المنبعث من مرجل الصهر .. اذ ما جدوى ملاحقة هؤلاء القوم من عمال الصهر السريع ؟. فاذا ما استيقظ فى الواحدة صباحا فانه لواجدهم وقدصبوا ما صهروا من معدن، فى منتصف الليل، أما ان استيقظ فى منتصف الليل فلا شك يكونون قد أتموا العملية فى الساعة الحادية عشرة ـ اذن ان أفضل شىء يا أماه هو أن نستسلم للنوم ونملأ منه الجفون فكم من ليال طوال قضيناها فى سهر متواصل .